بسم الله الرحمن الرحيم

القـوميّـــة والقبـلـيّـــة

موقع عربستان ـ عبد الكريم الأهـ ـوازي

((الحلقة الثانية))

إن الذين يعتقدون بالعنصرية و عرقيّة فكرة القوميّة ينحرفون عن مجراها التحّرري الجديد لأنهم يهملون فيها جوهرها الإنساني فمن شأن المصلحين و ولاة الأمر المتعهدين بالقيم الإنسانية أن يمنعـوا التنازع بين الناس و يجعلوهم ينسون عصبياتهم الضيقّة بمرور الأيام.

ولكنّنا و يا لخيبتنا لم نجد فيما قدّم كتـّابنا هؤلاء غير اضطراب المفاهيم و تصادم النزعات حيث يؤدي إلى شجار دائم في المجامع و الجوامع و المدارس و المجالس و نزاع مستمر فـي الطرقـات و الأسواق، فالناس تلذع بعضها و تطعن أحياناً بتهافتها البارد بما رسمتها لهم و كتبتها هذه الأقلام ظلماً، نعم حيث جعلتهم بأتـمّ الاستعداد ليخوضوا بأرواحهم و أفكارهم معركـة داحـس و الغبـراء وهـم مشرفون بأبدانهم على القرن الواحد و العشرين فمن حقّهم أن يسرّوا بعملهم هذا لأنهم قد نجحوا إلـى حدٍ كبير و من حقهم أيضاً أن يتباهوا و كيف لا ؟! وقد أصبحوا و كتاباتهم و تصانيفهم حديث اليوم. كيف لا يفرحوا وقد أحدثوا ضجّة شعبية ؟!

يا لها من مصيبة حيث يشغل الشعب و أبناءه بهذه المزاعم كأسماء القبائل و رؤسـائها و راياتهـا و.. بدلاً من بسط العلوم و المعارف التي تعين الشعب على السير في التفكير السـليم تجـاه مفـاهيم القوميّة الصحيحة و أدركها و توسيع المجال المتناسب للتوعية الصحيحة المتناسقة مع ديننـا و دنيانـا وحاضرنا.

لله درّك يا من صحت بنا أن:« مازال أبو سـفيان بلحيتـه الصّـفراء يؤلـّبُ باسـم اللاتـي العصبّـيات القبليـّة » فكذلك يؤلبُ كتابنا باسم القومية و باسم الثقافة الشعبية كل العصّبيات القبلية في عصر لا يقيم لهذه الانتماءات وزناً وفي زمن لا ينفع فيه النظام القبلي و قد يكون بالعكس تماماً فـأن تدهور الشعوب و ضياعها عن طريق هذا التحديد و التقييد، لأنّ طبيعة التطـور لا تخضـع للقبيلـة بقبليتّها{ بنظامها} في شئ، لأنها ـ أي العصبية القبلية ـ ميزة للبداوة كما يقول علماء الاجتماع و يجب أن تمحى.

فقد كانت البداوة مرحلة من مراحل التاريخ البشري فكما أن الإنسان يتحوّل بظواهر الحياة إلـى مادة، عليه أن يتحوّل بعقليته محتفظاً بالمباديء و القيم { المبادئ و القيم الذي لا تتعـارض مـع روح العصر والتزاماته } فالعربي الجاهلي مثلاً ما كان يشعر بوجوده من دون القبيلة غالباً و كما بينا آنفـاً القبيلة كانت له بمثابة الهويّة و كانت تعني له كل شئ. فالجاهليون كان شعورهم القـومي يختصـر أو يرتكز على القبيلة و في ذلك يقول الأديب العبقري جورج جرداق:**« إنما كان الشعور الـوطني لـدى أعراب الجاهلية مرتكزاً على القبيلة لانّ القبيلة كانت الشكل الاجتماعي الوحيد الذي يمكن للمكـان و الزمان أن يفرضاه على الأعراب يوم ذاك و يقبلاه وهي بذاك الشكل الاجتماعي الوحيد الـذي كـان الأعرابي يعرفه ويألفه و لا يطالب امرؤ بان يحب مالا يعرف و لا يألف.»** فإذا كان لا بـد للإنسـان العربي الجاهلي أن يتمسّك بقبيلته و يتعصّب للقبليـّة أيضاً بسبب وجود الظروف الاجتماعيـة التـي يعيشها و المفروضة عليه، هل يجوز للإنسان العربي في هذا العصر أن يتغنى بالقبليّة { كنظام قـيم } زاعماً أنها التغنيّ بالقومية؟!!

فكما أسلفنا يجب أن نعرف جيداً ما هو مفهوم القومية؟ فـلنلفت الانتباه إلى ما أشار إليه « جورج جوداق » من حيث جعل ترابطاً متيناً بين عصبيّة البدوي و قومية العربي و إنسانية الإنسـان وذلـك خلال إلقاء الضوء على مكارم الأخلاق و الصّفات الحميدة و النقاط الإيجابية وليس نتيجة بحثـه فـي عدد الغارات وشكل الرّايات، يقول:**« فالجاهلي الذي كان يمجّد في قبيلته ما ورثته من قيم أخلاقيـة كالكرم و الوفاء وحفظ الجّار وحرمة العهد ونجدة المستغيث و نصرة الضـعيف و إطعـام الجـائع وإيواء الغريب وعفّـة اللسان و عفّـة النظر و الصدق و علو الهمّة و الذكاء و الفصاحة و حسـن الرأي و الصبر، إنما كان يمجّد قيماً عربيّة أيضاً بدليل اشتراك القبائل العربية جمعاء في تمجيدها و في الالتفاء عليها عن طريق الشعر وهو في الوقت ذاته إنما كان يمجّد قيماً إنسانية خالصة يطلّ بها على الأفق البشري العام ويريد أن يفرض وجودها المطلق، كمُثُـل مطلقة.»** فأننا نعتز بقوميتنا لانّ جوهرها أنساني . فإذا نسيت جوهرها فهي عصبية ذميمة لا يقرّها الإسلام و لا { تقرها } الإنسانية.

القوميّة بمعناها الإنساني هي التي تجلب العزّة و الشّرف إذا ما تحدّثنا عن العزّة و الشرف وهي التي جعلتنا في ذروة الفخر و الـمُباهاة، إن كـان هنـاك مجـال للمفـاخرة و المباهـاة. فعنـدما تفقـد {القومية}معناها الإنساني تكون في الواقع تحجّر و انحطاط اجتماعي. تصبح الفكـرة القوميّـة جنايـة بشرّية فهنالك يستخدمها الطّغاة و أعداء الإنسانية أداة لإشباع الغرائز. علينا أذن أن نسـتوعب فكـرة القومية بشكلها العصري و بصورتها الحضارية ونتمسك بها من حيث أن **القومية العربية** مثلاً توحّد بين العرب لا لأنّها تفرّقهم وحيث دعوتها إنسانية لا غير.

قلنا أن التاريخ البشري متحوّل من مرحلة اجتماعية إلى أخرى و ذلك يحصل طبعاً بتحوّل البشر فكريّاً. فالإنسان يتأثّر بالمرحلة الاجتماعية التي يعيشها و بظروفها الحاكمة و بقيمها المتعارفـة لـدى أهلها فصعب جدّاً لمن يريد أن يقفز من مرحلته دون مجتمعه و إن استطاع أحد أن يجتـاز المرحلـة

بنفسه فقد يصبح شاذاً ولذلك نرى أن الأنبياء و الثوار و المصلحين في بداية قيامهم و نهضـتهم، كـم يعانون صراع المجتمع و مجابهته حتى ينبتون في نفوسهم حبّ التغييـر ويحبّبـون إلـيهم التحـوّل ويصحّحون لهم المفاهيم ويلقنون لهم صحّتها إلى أن يحدث الانقلاب و تبتـدي مرحلـة أخـرى فـي المجتمع. فالسّرّ في إرادة الناس و في حبّهم إلى التغيير. فأن الله سبحانه و تعالي يقـول: **« إن الله لا يغيّرُ ما بقوم حتى يغيّروا ما في أنفسهم.13/11»**.

مما لا شك فيه أن المجتمع البشري مرّ بمراحل مختلفة يتجه نحو التكامل بها أو يتطلّـبها. فعندما جاوز الإنسان تلك المراحل السابقة و أصبح ينظر إلى الحياة و أمورها بمنظار أوسع و اقـوي و أدق. ليس من الصواب إذن أن يتمسك بما كانت عليه الأمم البائدة من رسـوم باطلـة وعـادات جافـة و عصبيات ضيقّة ليـُدعي الأصيل بن الأصيل كما يظن البعض فأيّ أصالة أعمق من الإنسانية للإنسان و أحق له. إذا أهملنا مفهوم القبيلة في بحثنا هذا ليس معنى ذلك أن نهمل مفهوم القوميّة. لأنّ القوميّـة كما قيل فكرة مطلقة و تبقى مع الإنسان في تحوّله لأنها أيضاً غاية لا مرحلة يقول أحد المفكـرين **:« لقد تم انتقال الإنسان في دوائر متداخلة متسعة من الحياة من اجل القبيلة إلى الحيـاة مـن اجـل المدينة و من الحياة من أجل المدينة إلى الحياة من اجل القوم و الأمّة و مثل هذا الانتقال كان تدرّجاً طبيعياً من الضيق إلى الواسع أما الانتقال من الحياة القوميّة إلى ما يجاوزها فلا يدخل ضـمن هـذا الإطار. فالفرق بين الحياة القبلية و الحياة المدنية أو بين الحياة المدنية والحياة القوميّة فـرق فـي الدّرجة. أمّا الفرق بين الحياة القوميّة و الحياة اللاقوميّة التي يدعونها أمميّة، ففرق في الطبيعة على حد تعبير الفيلسوف برغسون.»**

أسألكم بالله عليكم ما جدوى إحياء ذكر القبائل و تأريخها و نظامها ؟!!

هل كانت المحاولة نتيجة دراسة وبحث علمي حيث رجحت جوانبها الإيجابية منها على السلبيّة لديكم؟! سؤال ملحّ، أم هل هناك غاية يستصعب علينا فهمها و استيعابها في هذا الظرف من الزمـان؟ ألـيس العالم كلّه بعلمائه و مفكريه في محاولة شاقة وسعي جاد في جميع الأبعـاد أن يجمعـوا و يوآلفـوا و يوحّدوا بين فئات القوم وشقق البلاد و اختلاف المذاهب والمشارب. هذه أوروبا مثلاً تحاول منذ أمـد طويل أن توحّد بين بلدانها و فئاتها وعناصرها و ذلك أدى إلى تأسيس المجامع المشتركة و الأحـلاف المترابطة وحتى أدّت المحاولة إلى دراسة كيفية ابتكار و إبداع لغة واحدة تجمع من حيث المصـدر و المرجع جميع اللغات اللاتينيّة. ومن ثم التجربة الاجتماعية تثبت أنّ التشـتّت والتفّـرق فـي الـبلاد المضطربة تسبّب التأخير والإبطاء في السير نحو التقّدم، ذلك أن عمليّـة التقـدّم و التطوّر تحتاج إلى من يسندها ويسوقها و ينفذّها بمختلف الوسائل على مستوي الشعب وذاك هو النظام الحاكم الذي مـن شأنه في أداء رسالته أن يوّفر للناس حقوقهم الاجتماعية و عدالتها ولأن يتمكّن من أداء الرسـالة مـا استطاع، عليه أن يمنع التنازع بين الناس و العصبّيات الضيقّة ويمنحهم الشعور بالعدالة والمساواة وإذا لم يحاول إنجاز هذه المهمة بمرور الأيام، تضطرم النزاعات والاشتباكات في المجتمـع وتبعـاً لـذلك

يستخلف الأمر المعضلات الاجتماعية العويصة و المعقّدة حيث تمكّن الطغاة اسـتغلال و إذلال هـذه الشعوب المتنازعة المتباعدة في نفسها بتنفيذ مؤامراتها الظالمة.

أيّها المصلحون ليس معنى ما ذكرناه فيما سبق من المقال أن ننسى **القوميّة** وقد أشرنا إليه أكثر من مرّة و لكرّر أيضاً و أصرّ في تبيين المراد كي لا يكون إساءة في التعبير إذا مـا حصـل إسـاءة ونقصاً غير متعمد في البيان نتيجة ضعف كاتب هذه السطور في الكتابة وفن التأليف. **فالقومية** لابد منها مهما تغيّرت الظروف و تحوّلت المجتمعات البشريّة وتوالت الأزمنة بالأحداث. قوميّة الإنسان كما يعبـّر عنه العلماء تنسب لجماعة لها مميّزاتها الخاصة حيث لا يمكن أزالتها إلّا بإزالة القوم وفناء هذه الجماعات، **« إن الإنسان قومي بوصفه منتسباً لجماعة من الجماعات تستوطن إقليمـاً مـن الأرض معيناً و تعيش من اقتصاد و ترتبط بتاريخ معين و تتفاهم بلغة واحدة وتجمعها فنـون جميلـة هـي تعبير عن حقيقتها المشتركة.. و أن الإنسان هذا إنسان بقوميته ذاتها لان القوميّة الصحيحة ليسـت إلّا مشهداً من الرّواية الإنسانية الكبرى و لأنّها بالنسبة للقوم كالملامح و كالاسم بالنسبة للفرد، فهي تميّـزه عن أخيه و لكنّها لا تفصله عنه..»** فالقومية ليست عرقيّة في شئ وهذا لا يناقض ما عبّرنـا عنه، فاعتراضنا من حيث أن القوميّة قد ضاع مفهومها الصحيح في تأليف كتابنـا و شـاع وصـفها بالعرقية وهذا ينافي حقيقة الأمر.

نحن إذا ما امعنّا في التاريخ وبحثنا قليلاً في علم الاجتماع وإذا اتخذنا الأسلوب المنهجي للبحث و التحقيق سوف نجد أن معظم القوميّات بل و كلّها تبتنى على الأسس التالية و قد نشير إليها بإيجاز لأن وضوح ما ندّعيه لا يتطلّب منّا التفصيل، ألا و هي:

الإقليم: بقعة من الأرض أو منطقة يسكن فيها جماعات معيّنة حيث تنسب هـذه الجماعـات لهـذه الأرض و من جهة أخرى تصح أن تنسب هذه الأرض المعيّنة لهذه الجماعات.

التاريخ: طبيعة الأيام وأحداثها تخلق لهذه الجماعات المعيّنه تاريخ معيّن و مشترك.

اللغة: طريقة التفاهم و تبادل الآراء و الأفكار فيما بينهم و كما يعبـّر عنها جرجي زيدان **« اللغـة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم وقد تعددّت أنواع الأصوات و طرق التعبير بتعـدّد الأمـم و اختلاف أصواتها..»**{لا يخفي على القارئ الكريم أن هذه نظرية القدماء بالنسبة للغـة واليـوم تعتبـر اللغة، ***الفكر*** بذاته} و نضيف رداً على الذين يعتقدون بعرقيّة القوميّة وعنصريتّهم إن لـم تكـن هـذه الأسس كافية لبناء القومية فأنها العوامل البارزة في تحكيمها و تقويمها بشكلها الكامل وعلى تعريفهـا الشامل لا ريب في ذلك. كذلك لو ألقينا نظرة شمولية و خاطفة في المجتمع البشري الحاضـر و مـن حقنا أن ننظر إلى واقعنا فنجد أن القوميّات ليست إلّا هذه الجماعات إلتي ذكرناها في مختلـف نقـاط العالم.

فإذا كان العربي الجاهلي يرى القوميّة بكل مفاهيمها هي تتلخّص في القبيلـة وفـي قبيلتـه بالـذات، فاليوناني أيضا في قديم الأيام كان يفهم القوميّة في حبّه و ولاءه لإقليمه « أثينـا» أو «إسـبارطة» و كذلك الروماني فكان يتعصّب لبلده الذي يعيش فيه لا للإمبراطورية العظمي. ولكن اليوم تغيّرت كثيـر من هذه الاعتبارات و الموازين و النزعات وصارت معنى القوميّة عند العرب هي القوميّـة العربيّـة وعند الفرس هي القوميّة الفارسيّة أو الإيرانية وكذلك عند سائر الأقوام فهي توسّـعت بتوسّـع نطـاق الفكر البشري و توسّمت بعنوان اشمل ممّا كانت تعهده البشريّة، ولذا صار من السهل أن يذوب الفـرد في قوميّة أخرى بعد تطبّعه فيها و اقتناعه بها اختياراً أو قهراً، يقول جورج جرداق صاحب الموسوعة العلوية الكبرى في كتابه القيّـم «علي والقومية العربيّة »:

« هل صار عروبة نفر من كبار شعراء العرب أنهم ينحدرون مـن أصـول فارسـيّة أو روميـة أو غيرها؟ وهل صار عروبة صلاح الدين أن أصله كردي ؟ و هل نرفض دخول ابن المقفـع { ثبتـت الأبحاث الجديدة أن وجود ابن المقفع أسطورة ملفقة } مثلا في صميم الروح العربي لأنـه فارسـي الأصل؟» إلى أن يقول في هذا الباب**:« أم هل نرفض في النتيجة عروبـة السّـوريين والعـراقيين و اللبنانيين و المصريين لأن كثيراً منهم ليسوا من اصل عربي؟!! »** ثم يضـيف: **« أن القوميّـة فـي حقيقتها ليست عنصريّة في شئ لأنّ جوهرها الأصيل إنساني كريم.»**

لقد حاول الاستعمار الغربي كما يشير العالم المصري« محمد الغزالي» إلى ذلك، أن يفرّق الأمـة العربيّة في أبان نهضتها بإعادة العرقية لها و بث هذه الفكرة الخبيثة حيث يمكنها أن تسحب المصريين لقبطيتها و تغيّر العراقيين إلى آشوريّتها وتنقل اللبنانيين إلى فنيقيّتها، وقد فشلت بحمد الله هذه المؤامرة القذرة بسبب رسوخ الفكرة الصحيحة للقوميّة بين أبنائها و لكن الاستعمار كما هو معروف لا يرضـي إلّا بامتصاص دم الشعوب فيجرّب في ذلك و لأجل إنجاز مهمّته كل الوسائل، فـدخل إلـيهم بطريقـة أخرى و بأسلوب آخر و قد نجح إلى حد كبير للأسف الشديد و بواسطة تواجد الخونة و المرتـزقين و وعّاظ السلاطين بين هذه الشعوب.

يتبع